كلمة تلامذة الفقيد

ألقاها الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف

كلما سقطت ورقة من شجرة المعرفة التي أتفيأ ظلالها تداعى إلى ساحة وعيي بيت عمرو بن معديكرب:

ذهـب الـذيـن أحبّهـم وبقيت مثل السيف فردا

وعندما أتأمل وجهي في المرآة، أحدّق في آثار الزمن فيه، وأشعر بدنوّ الأجل إذ ينسرب الضعف في جسدي، أعزي النفس ببيت حبيب بن أوس الطائي، أبي تمام:

لا تنكـري منـه تخـديـدا تخلّلـه فالسيف لا يُزدَرى إن كان ذا شُطَب

غير أني سرعان ما أصحو على بؤس الواقع الذي نعيشه منغمسين فيه برضى غريب عجيب، وإذ يتَبيَّن لي كيف تزهد مجتمعاتنا بآثار السنين، وتشتري خبرات الحياة بثمن بخس، فإني أسلم أمري إلى من منحني نعمة الحياة، مردِّدًا «حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل».

ذهب الذين أحبهم، أقولها وأنا أغبطهم، ذلك أنهم استسلموا لملك الموت يقبضهم إلى جوار ربهم، ومضوا إلى قبورهم يرقدون فيها، لعلهم يجدون هناك بعض الراحة في ضجعة الموت إلى حين انتقالهم إلى دار الشقوة أو دار الرشاد، إذا مارغبنا في استعارة عبارة أبي العلاء المعري:

خلـق النـاس للبقـاء فضـلَّتْ أمـــــة يحســـبونهم للنفـــاد
إنـــما ينقلـــون مـــن دار أعـــما ل إلى دار شـــــقوة أو رشـــاد
رقـدة المـوت ضـجعة يسـتريح الجسم فيهـا والعيش مثل السهاد

أغبطهم على ما انتهوا إليه من راحة، أما نحن، الأحياء، فلا راحة لنا إلا بلقاء وجه ربنا. ذلك أن الأحياء عندما يواجهون الموت: يفقدون حبيبًا، أو قريبًا، أو صديقًا، فإنهم: يعيشون الندم، بل الإسراف فيه، على تفريطهم بفسحة الحياة وعدم لقاء الفقيد أكثر مما لقوه؛ يعيشون الإحباط بسبب استحالة التواصل مجددًا مع الفقيد، ولا جدوى من الندم مهما طال.

وهكذا يلجؤون إلى استحضاره في نفوسهم بالحديث عنه، أو الكتابة عن مآثره، أو اجتراح أي فعل يشي بحزنهم على فقده، ويسعى إلى استدراك تقصيرهم بما كان عليهم أن يفعلوه من أجله عندما كان حيًّا.

ولكن كل ذلك وهم، فالكتابة تُغيِّب الفقيد، بحديثها عنه بصيغة ضمير الغائب، مع أنها تجهد في ذكر محاسنه، وهكذا فإنها تتحول إلى قتل ثان له من حيث لا يدري صاحبها ما تجترحه يداه.

غير أن الصمت، وهو الخيار البديل، تغييب له أيضًا، بالتجاهل أو الإهمال. ولذلك فإن جاك ديريدا كان يواجه الفقد دائمًا بوعد الكتابة عن الفقيد لاحقًا، ولكنه في نهاية المطاف كان يكتب[1]، وهأنذا أكتب عن شيخي محمد إحسان النص، فكيف لي أن

---

(١) انظر كتابه:

Jacque Derrida,

The Work of Mourning, Ed. Pascale-Anne Brault and Michael Nass, (The University of Chicago Press, Chicago and London, 2001).

أفرّ من قتله ثانية بالحديث عنه حديث الغائب؟ إنها لمعضلة والله، وتجاوزها مجرد اجتهاد، مسعى لعله يُحمد.

يبدو لي أن السبيل الوحيد للابتعاد عن التغييب الذي أشرت إليه هو محاورة الرجل.

لقد توقف قلب «**الإحسان**»، وتوقف الرجل عن المزيد من العطاء، ولكن «**النص**» لا يزال بين أيدينا «**علمًا ينتفع به**» ومن المحال أن يتوقف إحسانه، فلنحاوره بالاحترام الذي يليق بتاريخ صاحبه، وبالجدية التي أخذ نفسه بها، وبالأناة التي يبدو أنه فُطر عليها، وبالمعرفة التي كانت ديدنه، وبالإخلاص الذي كان دأبه، خاصة وأن الرجل اتخذ من «**شرح النصوص**» Explication de Textes منهجًا يتدبّر به نصوص الآخرين، وكان كل مافعله ينطلق من النصوص ويرتد إليها، لينوّر قارئها بعده ويجعله في وضع يمكنه من استيعابها وفهمها على النحو الأمثل.

لقد انشغل الرجل منذ بداية مسعاه المعرفي بنشأة الوعي الجمعي للأمة العربية وتشكُّله في ظل الدولة الأموية، بوصفها أنموذجًا للإفصاح السياسي المعافى عن الأمة العربية، ويُعدّ هذا الأنموذج، بإجماع المؤرخين السياسيين العرب وغير العرب، من أكثر النماذج تطوّرًا وأنصعها تعبيرًا عن الإرادة السياسية للأمة التي قامت على التنوع الخلاق Creative Diversity، والذي تجلى بأسمى صوره في الأندلس التي لاتزال، ليس في عيون العرب وذاكرتهم فحسب، بل في عيون الإنسانية وذاكرتها الجمعية أيضًا، الفردوسَ المفقودَ الذي ينبغي عليها أن تستعيده. أقول لقد انشغل الرجل بعملية تشكّل هذا الوعي عندما درس « **الخطابة العربية في العصر الذهبي**»، وبعدها «**العصبية القبلية و أثرها في الشعر الأموي**» في رسالتيه لدرجتي الماجستير والدكتوراه، ليتبعهما بدراسة **شعر الغزل في العصر الأموي، و الشعر السياسي في العصر الأموي**، ودراسة كلٍّ من الشعراء **حسان بن ثابت وزهير بن أبي سلمى والعباس بن الأحنف**، فضلًا عن دراسته الرائدة والمتقدمة لـ

القبائل العربية وأنسابها وأعلامها في جزأين، وصناعته لـ اختيارات الأغاني في ستة أجزاء. وعمله العلمي الأخير **كتب الأنساب العربية** الذي صدر عن مجمع اللغة العربية، منصرفًا إلى دراسة نصوص الأدب العربي وما تنطوي عليه من توزُّع الولاء بين «**الأنا**» و«**الجماعة**»، ولعله كان يسعى من وراء ذلك إلى فهم طبيعة النفس العربية من خلال فهم ما تفصح عنه شعرًا ونثرًا، ليتبين السبيل إلى تعزيز الولاء للجماعة في نفوس أبناء الأجيال التي درَّسها في سورية والجزائر والكويت، فَبِه وَحدَهُ تجد سبيلها إلى العزة والكرامة، وإلى بناء الحاضر الذي يليق بصروح الماضي المجيد، واستشراف المستقبل الواعد، الذي يمكن أن يفخر أحفادُ بُناتِه بِمن بناه.

ومن الضروري بمكان الانصراف إلى محاورة هذا «**النص**» المتدفق على مدى أكثر من ستة عقود، والانشغال به وتجاوزه حتى يتم الإسهام على نحو إيجابي بتأدية الرسالة التي نذر نفسه لها.

نعم لقد توقف قلب «**الإحسان**»، وغيَّبه الموت، ولكن «**النص**» لا يزال بيننا لنحاوره بما أمكن من طرق يمكن أن أشير إلى بعضها على نحو برقي:

١- الكتاب التكريمي Festschrift الذي يسهم فيه أصدقاء المكرَّم، وتلامذته، وأقرانه بغرض التنبيه على مكانته، وأهمية إنتاجه، وتوضيح إسهامه في حقل تخصصه المعرفي.

٢- تسمية كرسي باسمه في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق يُسند إلى من ينهض برسالة المكرّم التي نذر نفسه لها.

٣- تنظيم محاضرة تذكارية باسمه تلقى سنويًا من جانب أستاذ بارز في حقول اهتمامات المكرّم.

٤- تأسيس منحة باسمه تمنح لطالب أو أكثر يتابع دراسته في جوانب من اهتمامات المكرّم البحثية.

٥- تخصيص جائزة كتاب باسمه تمنح لمُؤَلَّف يتناول واحدًا من جوانب اهتمامات المكرّم الفكرية والبحثية.

٦- إقامة ندوات ومؤتمرات تناقش إسهام المكرّم وأعماله.

٧- إصدار أعداد خاصة من المجلات المرموقة المعنية باهتمامات المكرَّم تتناول موادها حياته وأعماله بالدراسة والتحليل والمناقشة وتتحاور مع آرائه وأفكاره وتبني عليها، دافعة أبحاثه ومحاجاته إلى مدى أوسع وأفق أبعد.

٨- تسمية بناء، أو مكتبة، أو قاعة، أو مدرج في الجامعة باسمه، تُذَكِّر بإحسان الرجل الغائب، والنص الحاضر.

رحمك الله ياشيخي الجليل، وألهم أهلك وأحبّتك الصبر والسلوان، وبعث فينا ماينبغي من علوِّ الهمة والإخلاص في العمل للنهوض بعبء حوارك فيما تركته فينا من علم ومعرفة، لنفهم أنفسنا، ونفهم غيرنا، ونفهم العالم الذي نعيش فيه.